كشف القطب الشمالي

لوديع فلسطين

في مثل هذا الشهر (ابريل) وفي اليوم السادس منهُ قبل أربعة وثلاثين عاماً، كشف روبرت بيري Robert E. Peary القطب الشمالي، فسجل لبلاده فخر كشفهِ، متحدياً، في سبيل بلوغ غايته، الطبيعة والموت

ففي أحد أيام يوليو ١٩٠٨، غادر بيري نيويورك على ظهر السفينة « روزڤلت » وتوجه شطر رأس يورك. وهناك بدأ في اختيار أعوانه من الاسكيمو الذين عرفهم في رحلاته السابقة، فقالوا له: « أنت كالشمس لانك ترجع دائماً ». وسعدوا بالانضمام اليهِ وبمرافقتهِ. وصحبوا معهم زوجاتهم وأطفالهم وخيامهم المصنوعة من الجلد، مزالقهم التي يتزلقون بها على الجليد، ولم يفتهم أن يصحبوا كلابهم

كان بيري إذ ذاك في الثانية والخمسين. لقد وقف عشرين عاماً من حياته بحثاً عن القطب. فمنذ ذلك اليوم المشهود الذي قضاه في وشنطون، حينما عثر عرضاً على نسخة من كتاب، يبحث في مكتشفات المحيط المتجمد الشمالي، فاستحوذت طلاسم الشمال وأسراره على عقلهِ وفكره، ومن تلك الساعة أخذ يتحمّل مرّ العذاب ويذوق علقم الاخفاق المتكرر. ولكن هذا لم يزده إلاّ تمسكاً بغايته، وظمأ الى بلوغها. لقد ضحى في سبيلها بمستقبل زاهر باهر في هندسة البحرية. ولم تستطع، حتى حملة سنة ١٩٠٦ الفاشلة، التي عاد منها بيري ورجاله وهم بين الحياة والموت بعد أن صاروا على ١٧٤ ميلاً من القطب، ولا الوفاة الفجائية للممول الرئيسي الذي كان ينفق على رحلاته بسخاء وسعة، ولا الخيبة التي مُني بها في آخر مؤلفاته — جميع هذه العوامل لم تكن لتثني هذا الرجل الحديدي الارادة عن غرضه. فقد عقد العزم على بلوغ مأربه هذه المرة، وإلاّ فالموت

سارت السفينة « روزڤلت » تمخر عباب اليم عقدة بعد أخرى، من خليج بافن Baffin Bay الى القنوات الضيقة بين جرينلند وأرض « إلسمير » Ellesmere Land حتى وصلت الى البحر القطبي الشمالي. وهناك قضى « بيري » ورفاقه مئات أطبقت فيه الثلوج على سفينتهم فعجزت عن أن تواصل سيرها أو تتوغل في مجاهل المحيط القطبي

وفي غضون ذلك ، صنع رجال الاسكيمو المزالق ، وصادوا الثيران والدببة وعجول البحر وغيرها من الحيوانات الصالحة للأكل . وصنع « مات هنسون » Matt Henson الزنجي الأجش الذي اشترك في حملات بيري سنوات عديدة ، مزالق من نوع جديد بلغت من الجودة والاتقان حدّ الكمال. وخاطت نساء الاسكيمو الثياب من الفراء فوجد فيها بيري حصناً منيعاً ضد البرد يفوق جميع الملابس العصرية . وانتهز الرجال البيض هذه الفرصة ، وراضوا أنفسهم على احتمال الزمهرير ، استعداداً لما يصادفونه من برد يبلغ الستين تحت الصفر

ولما كان المعروف عن القطب انه يقع وسط البحر القطبي المتجمد ، كانت مهمة البعثة أن تندفع من رأس كولومبيا الى القطب ، وتعود ثانية ، وهي رحلة طولها الف ميل ذهاباً وإياباً. فكان عليهم أن يخفّفوا أحمالهم ويقللوا متاعهم ، مدققين في كل أوقية منهُ . ولم يحملوا معهم إلا ما يكفي بضعة رجال ليصلوا الى القطب ذاته . وكانت الخطة بعد ذلك أن تنشأ فرق متعددة تكون في الطليعة ، مهمتها شق الطريق لمن يتبعها ، وخزن مواد الغذاء ، وبناء أوكار للأوى . ثم تتبعها فرقة خفيفة حتى تصير على بعد ١٥٠ ميلاً من القطب ، وإذ ذاك تفسح لها فرق التموين الاخرى المجال ، لكي تندفع هذه الفرقة الشيطة كالسهم المارق الى القطب ، وتعود ثانية قبل أن تتحطم الثلوج . فكانت رحلتهم سباقاً ضد الوقت والجليد والماء والموت

وقبل أن ينقشع ليل الشتاء ويولّي ظلامه ، بدأ المحوم الخاطف على القطب ، في يوم عيد ميلاد جورج وشنطون (٢٢ فبراير) [1] من سنة ١٩٠٩ . وظل الرجال ستة أيام في احدى جوبات الماء التي تكوّنها كتل الجمد الذائبة . ولما انطبق الجمد ، أسرعوا ، ولكنهم صادفوا جوبات أخرى . وتحطمت أوكارهم في ليلة حينما ظهرت تحتها جوبة ، فخرج الرجال منها يناضلون ويكافحون . ولو لم يصرّ بيري على ضرورة ارتداء ملابس الاسكيمو التي يستطيعون العمل والنوم بها دون مشقة ، لقضى الرجال لا محالة

وفي يوم أول ابريل رجع الكابتن بوب بارتلت Bob Bartlett وقد كان في آخر سفته للتموين ، قرب القطب لكي يشرف على حفظ طريق العودة مهيئاً ممهداً . واستمر « بيري » و« هنسون » في الاندفاع الى الأمام مع أربعة من خيرة الاسكيمو وكان معهم من الزاد ما يكفيهم الرحلة فقط ، فأصبح عنصر السرعة أساسيًّا في هذا المنبطح الثلجيّ ، وكان تقدمهم بسرعة ٣٠،٢٥ الميل في اليوم

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٩ بلغت البعثة القطب الشمالي ، فأخذ بيري رفاقه فرداً فرداً ، ثم التقط عدة صور فوتوغرافية ، وقام بأرصاد جوية وبحرية

(١) جاء في دائرة المعارف البريطانية ان الرحلة الاخيرة من الرحلة بدأت يوم أول مارس

بلغ عددها اثنين وثلاثين من نقط مختلفة. وفي القطب، مكث بيري ثلاثين ساعة، ونصب خمسة أعلام، كان أحدها مصنوعاً من خرق حريرية بالية جمعها من بقايا الرايات التي كانت تتركها بعثاته السابقة في أقصى مكان تبلغه

وكتب بيري يقول: « وبدا لي أن التعب الذي حلّ بي من تلك الأيام المتتابعة الحركة، ومن قلة النوم، ومن الأخطار المحدقة المستمرة، ومن القلق السائد، بدا لي أن كل هذا قد زال دفعةً واحدة. وكانت قواي قد انهكت، وأعصابي قد تحطمت، حتى اني لم أستطع أن أدرك اني قد حققت رغبة حياتي ونلت أمنيتها أخيراً ». غير أن البعثة لم تكن أسعد حظاً في الاياب منها في الذهاب، إذ كان عليها أن تسير بسرعة تفوق سرعة الذهاب، قبل أن تسري انفاس الربيع فتحطم الجمد وتعطل سير رجالها. فكان لكل ساعة من الزمن قيمتها

فتضاعف الرجال سرعتهم، وألقوا بالفائض من الثياب جانباً، وقللوا نصيب كل منهم من الطعام، نخفت أحمالهم. اما نومهم، فكان لا يزيد على ساعات قليلة في أوكار بنيت في طريقهم. ولما يصادفوا في عودتهم ما يستحق الذكر، سوى انهم أصابوا جوعة كبيرة، ولكنهم عبروها على قطع الثلج الطافية. واضطروا الى قتل الكلاب المُجَهَّدَة المنهكة ودمي لحومها الى الاخرى. واخيراً بلغوا رأس كرنوميا، وهناك أكلوا وناموا يومين كاملين. واستطاع بيري للمرة الاولى في سنين ان ينام ليلاً، وحقّ له أن ينام ملء جفنيه بعد ان نال مراده، واقام على القطب الشمالي علم الولايات المتحدة. وكانت رغبته بعد ذلك ان يخلد الى الراحة مع زوجته وأولاده، وان يهنأ بمعه وناظريه بتقدير مواطنيه

وفي يوم ٥ سبتمبر ١٩٠٩ دخلت السفينة «روزفلت» الميناء الهندي بلابرادور، وكلها زهو وخيلاء حاملة بين جنبيها الرجل الذي حاول دون جدوى بلوغ القطب الشمالي سبع مرات سابقة، ونجح اخيراً. ومن محطة اللاسلكي، أبرق بيري الى زوجته «لقد نجحت اخيراً». ومن محطة اللاسلكي، أبرق بيري الى الصحف خمس كلمات بسيطة — ظن انها ستصعق العالم وتسري فيه سريان الكهرباء: (وصلت القطب «روزفلت» بخير: بيري)

وتقدمت الباخرة جنوباً حتى ارست في ميناء بانل Battle واذ ذاك اقتربت سفينة غطى مراسلو الصحف سطحها، فأحسّ بيري بأنهُ قد كوفئ على عمله الجليل، وهاهي ذي الجماهير تحيّيه

وهنا في ميناء بانل، وجد بيري ما لم يكن يخطر له، ماذا وجد؟ وجد الصحفيين يتحدثون عن سباق، سباق بينه وبين «كوك». أي سباق؟ ألم يعرف ان الدكتور فردريك كوك قد بلغ القطب الشمالي قبله في ابريل ١٩٠٨، وأعلن، قبل أن يبرق بيري برقيته من الميناء الهندي بخمسة ايام فقط، انهُ بلغ القطب الشمالي؟ رجلان يبلغان المرمى

الذي ظلّ ثلاثة قرون محط الانظار وقبلة الرواد ، ويعلنان فوزهما في نفس الوقت تقريباً !

لم يصدق بيري أذنيه لان القطب يقع وسط البحر المتجمد القطبي وبعد ٤٠٠ من الاميال عن أقرب يابسة ، وقد قرّر الاسكيمو الذين رافقوا الدكتور كوك ، ان اليابسة لم تغب عن ابصارهم قط ! كان بيري يعرف الجرّاح كوك ، اذ صحبه في إحدى رحلاته السابقة للتطبيب وقت الحاجة . ولكن بيري كان وطيد الثقة بأن كوك لن يستطيع التغلب على الصعاب العديدة التي تعترض الفتح القطبي ، وشرح للصحفيين اسباب ذلك مستنداً الى الحجج العلمية

وازداد ضيق بيري عندما ادرك ان بعض المخبرين لم يكونوا مهتمين بالبراهين العلمية ، بل كانوا يطلبون « قصة » للصحف ! هل صادف بيري دبّا قطبيّا وحاربه ؟ لا ! هل هاجمته الذئاب ؟ كلاّ ! ولكن الدكتور كوك صادف هذه الحيوانات وتغلب عليها

وأخيراً ظهرت الحقيقة سافرة لبيري ، إذ بعد ان قضى حياة وقفها على تحقيق غاية عظيمة واحدة انكروا عليه سبقه الى كشف القطب ، وشكوا في نزاهته ! وكما جاهد في حياته لكشف القطب ، وجب عليه الآن ان يجاهد ايضاً للحصول على الاعتراف والتقدير الذي يستحقه

وفي الوقت الذي أبرق فيه بيري رسالته كان الدكتور كوك في كوبنهاجن يستقبل الملك وتقام له حفلات التكريم ، ويكلّل جيده بقلادة من الورد كأنه بطل . فتدفقت كلمته . وعند ما طُلب اليه ان يعلق على اخبار بيري أجاب ماكراً : « إذا قال بيري انه بلغ القطب فأني مصدقه »

وفي ميناء نيويورك استقبل كوك استقبالاً حماسيّا من ألف من المعجبين به . وأقيمت له أقواس النصر ورفعت الاعلام في الشوارع . ثم بدأ جولة كبيرة لالقاء محاضرات أجر كل منها عشرة آلاف من الدولارات ، وكان يتقاضى مبالغ طائلة لتحرير قصة لجريدة ، او لسرد حوادث الرحلة . ولما طلب من الدكتور كوك ان يقدم براهين علمية تؤيد صدق قوله ، كالارصاد مثلاً ، اعتذر بأنه ترك هذه السجلات مع صديق له ! ولما وجد النقاد اخطاء في رواياته الصحفية ، اعتذر بأنه لم يقرأ الاصول قبل طبعها وقال إن كتابه سيثبت كل شيء . ولما دخلت « روزفلت » خليج هدسون قوبلت بمظاهر الاستياء وآهات الغضب والعلامات الاهانة من اتباع كوك . ولكن بيري لم يجب . ورفض مبدئيّا كل حفلة تكريم حتى يقدم كل من الفريقين ما لديه من البراهين الى إحدى المحاكم المعترف بها . ولكنه بدا جليّا أن هذا لن يحدث . فقدم بيري براهينه الى لجنة في الجمعية الجغرافية الأهلية ، ففحصتها وحصّها واعترفت بها وتحمدث في كثير من الجمعيات العلمية ، ولكنه رفض أن يتقاضى عن ذلك أجراً

واستفتت احدى الصحف قراءها ، فأسفرت النتيجة عن فوز كوك باتفاق ١٠ على ١ ، وشعر أغلب الاميركيين بنفس الشعور . وعضّد [illegible] الصحفي الاميركي المشهور ،

الدكتور كوك بكل جوارحه . وقضى كوك شهرين في القاء المحاضرات قبل أن يقدم أدلته الى جامعة كوبنهاجن (التي عدّها لاحزبية) ولكنها رفضتها رفضاً باتّاً

وتحول الميل تدريجاً ، اذ تعلق الشعب بيري لكريم خلاله واستعداده لتقديم براهينه للبحث والتمحيص . وحدثت مجادلة كبيرة في احد اجتماعات الكونغرس بشأن مشروع احالة بيري الى المعاش ومنحه رتبة «ريز ادميرال» . وبطلاً من ان ينال بيري تهانيء شعبه ، مع الاتهام العارخ الذي وجهه اليه اتباع كوك في الكونغرس فقالوا عنه انه «كاذب متعمد الكذب مع سبق الاصرار ، ومختلس دنيء» . ولكنهُ أجاب مع ذلك عن أشد الاسئلة اهانة ، بكل عناية . وجرّت الجلسة في أعقابها جلسات أخرى حتى ألقى خصومه في المجلس النيابي سيوفهم

وهرجم بيري مرة أخرى من بعض ضباط البحرية العاديين . فقالوا ان ترقيته تتجاوز قوانين الاقدمية ، وأشاروا الى ان غيابه الطويل (في رحلاته الى القطب) حال دون تقدمه الى الامتحانات البحرية الرسمية . فقام بيري الذي كان قد فقد جميع اباهم بتأثير الصقيع وأصيب في ساقيه ، وسار ٢٥ ميلاً في ستة ساعات ، وعندما نهض للردّ صمت نقاده

وأخيراً وبعد سنتين من رحلته الشمالية ، تقاعد برتبة «ريز أدميرال» ووضع في قائمة المتقاعدين اعتباراً من ٦ ابريل ١٩٠٩ ، وهو اليوم الذي بلغ فيه القطب . واعترف الكونغرس رسمياً بالمغانم التي حصل عليها ، وكذلك اعترف بها رئيس الولايات المتحدة ، كما اعترفت بها فعلاً جميع الجمعيات العلمية . لقد فاز بيري في آخر المطاف له

وقام الدكتور كوك بمغامرات أخرى .... وبينما مجادلات الكونغرس في أوجها ، أقسم رجلان من نيويورك ، أحدهما ربّان بحري ، ان كوك كان قد استأجرهما لكي يقدما أرصاداً جوية تثبت انه بلغ القطب . وكذا أعلن ادوارد باريل Edward Barrill ، المرشد الذي رافق الدكتور كوك في رحلة قيل عنها انها ناجحة لصعود قمة جبل ماكنلي عام ١٩٠٦ ، أعلن أن كوك لم يبلغ القمة . واستمر كوك في القاء محاضراته ، ثم اختفى في اميركا الجنوبية أشهراً ، ثم عاد الى الولايات المتحدة وغاب عن انظار الجمهور تدريجاً وفي عام ١٩٢٣ ، حكم عليه بالسجن ١٤ عاماً قضاها في سجن ليفنورث متّهماً بغش ما (١)

وبعد ما انقضت مجادلات الكونغرس ، تمكن بيري من التمتع حقيقة بالحياة العائلية الهادئة التي كان يطمح فيها . وكان إبان الحرب العالمية الاولى يلقي محاضرات في المعاهد ، فأصيب بالانيميا . وظن ان هذه معركة أخرى يجب الانتصار فيها ، ولكنها كانت معركة خاسرة . في يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ، راح في غيبوبة ، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، خفت شعاع روحه الجريئة ، ثم خمد

[عن الانكليزية بتصرف]

(١) نشر وصف مفصل كوك في دعواه عن القطب الشمالي في مقتطف مايو ١٩٢٣